السيرة النبوية [٣]

بعثة النبي
صلى الله عليه وسلم

إعداد : محمد محمود القاضي

منبر التوحيد والجهاد

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

كان محمد صلى الله عليه وسلم يكثر من الذهاب إلى غار حراء ، فيجلس وحده فيه أياماً بلياليها ؛ يفكر في خالق هذا الكون بعيداً عن الناس وما يفعلونه من آثام ، ولقد كان يمشي تلك المسافة الطويلة ويصعد ذلك الجبل العالي ، ثم يعود إلى مكة ليتزود بالطعام ويرجع إلى ذلك الغار . وظل مدة لا يرى رؤيا إلا وتحققت كما رآها ، وبدأت تحدث له أشياء عجيبة لا تحدث لأي إنسان آخر ، فقد كان في مكة حَجَر يسلم عليه كلما مر به ، قال صلى الله عليه وسلم : " إني لأعرف حجراً بمكة كان يسلم عليّ قبل أن أبعث ، إني لأعرفه الآن " [مسلم] .

وفي غار حراء كانت بداية بعثة النبي صلى الله عليه وسلم ، وكانت أول مرة يتزل عليه جبريل ويحدثه .

الوحي

وكان النبي صلى الله عليه وسلم يجلس ذات يوم في الغار ، وإذا بجبريل – عليه السلام – يتزل عليه في صورة رجل ويقول له : اقرأ .

وكان النبي صلى الله عليه وسلم لا يعرف القراءة ولا الكتابة ، فخاف وارتعد ، وقال للرجل : ما أنا بقارئ .

وإذا بجبريل – عليه السلام – يضم النبي صلى الله عليه وسلم إليه بشدة ، ثم يتركه ويقول له : اقرأ .

فقال محمد : ما أنا بقارئ .

وتكرر ذلك مرة الثة ، فقال جبريل : (**اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ، خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ، اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ**) [العلق : ١ – ٣] .

فكانت هذه أولى آيات القرآن التي نزلت في شهر رمضان على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في السنة الأربعين من عمره .

رجع محمد صلى الله عليه وسلم إلى بيته مسرعاً ، ثم رقد وهو يرتعش ، وطلب من زوجته أن تغطيه قائلا : " زملوني ، زملوني " .

وحكى لها ما رآه في الغار ، فطمأنته السيدة خديجة ، وقالت له : كلا والله لا يخزيك الله أبداً ، إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكلَّ (الضعيف) ، وتُكسب المعدوم ، وتُقري (تكرم) الضيف ، وتعين على نوائب الحق . فلما استمع النبي صلى الله عليه سلم إلى كلام السيدة خديجة ، عادت إليه الطمأنينة ، وزال عنه الخوف والرعب ، وبدأ يفكر فيما حدث .

حكاية ورقة بن نوفل

وكان للسيدة خديجة ابن عم ، اسمه ورقة بن نوفل على علم بالديانة المسيحية ، فذهبت إليه ومعها زوجها ؛ ليسألاه عما حدث .

فقالت خديجة لورقة : يا بن عم ، اسمع من ابن أخيك .

فقال ورقة : يا بن أخي ماذا ترى ؟

فأخبره النبي صلى الله عليه وسلم بالذي حدث في غار حراء ، فلما سمعه ورقة قال : هذا الناموس الذي كان يترل على موسى .

ثم أخبره ورقة أنه يتمنى أن يعيش حتى ينصره ، ويكون معه عندما يحاربه قومه ، ويُخرجونه من مكة ، فلما سمع الرسول صلى الله عليه وسلم ذلك تعجب وسأل ورقة قائلا : أو مُخرجيَّ هم ؟ فقال له : نعم ، لم يأت أحد بمثل ما جئت به إلا عُودِيَ .

ومنذ ذلك اليوم والرسول صلى الله عليه وسلم يزداد شوقاً لوحي السماء الذي تأخر نزوله عليه بعد هذه المرة .

عودة الوحي

وبعد فترة ، وبينما كان النبي صلى الله عليه وسلم يمشي إذا به يسمع صوتاً ، فرفع وجهه إلى السماء ، فرأى الملك الذي جاءه في غار حراء جالساً على كرسي بين السماء والأرض ، فارتعد الرسول صلى الله عليه وسلم من هول المنظر ، وأسرع إلى المنزل ، وطلب من زوجته أن تغطيه ، قائلا : دثروني . دثروني .

وإذا بجبريل ينزل بهذه الآيات التي يوجهها الله إليه : (**يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ، قُمْ فَأَنذِرْ ، وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ، وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ، وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ**) [المدثر : ١ – ٥] .

وفي هذه الآيات تكليف من الله سبحانه لرسوله صلى الله عليه وسلم أن يدعو الناس .

الدعوة سراً

بدأ الرسول صلى الله عليه وسلم الدعوة إلى الإسلام سرّا ، وبدأ بأقرب الناس إليه ، فآمنت به زوجته خديجة بنت خويلد ، وآمن به أيضاً ابن عمه علي بن أبي طالب ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الذي يقوم بتربيته .

وكان صديقه أبو بكر الصديق – رضي الله عنه – أول الذين آمنوا به من الرجال ، وكان ذا مكانة عظيمة بين قومه ، يأتي الناس إليه ويجلسون معه ، فاستغل أبو بكر مكانته هذه وأخذ يدعو من يأتي إليه ويثق فيه إلى الإسلام ، فأسلم على يديه عبد الرحمن بن عوف ، وعثمان بن عفان ، والزبير بن العوام ، وطلحة بن عبيد الله ، وغيرهم .

واستمر الرسول صلى الله عليه وسلم يدعو قومه سرّا ، وعدد المسلمين يزداد يوماً بعد يوم ، ويقوي الإيمان في قلوبهم بما يترله الله عليهم من القرآن الكريم ، وظلوا هكذا ثلاث سنوات .

الجهر بالدعوة

أمر الله سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم أن يجهر بالدعوة ويبدأ بعشيرته وأهله ، فقال تعالى : (**وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ**) [الشعراء : ٢١٤] .

فنادى الرسول صلى الله عليه وسلم قريشاً ، وقال : " يا بني كعب ، أنقذوا أنفسكم من النار ، يا بني عبد شمس ، أنقذوا أنفسكم من النار ، يا بني عبد مناف ، أنقذوا أنفسكم من النار ، يا بني هاشم وبني عبد المطلب ، أنقذوا أنفسكم من النار ، يا فاطمة ، أنقذي نفسك من النار . فإني والله لا أملك لكم من الله شيئاً إلا أن لكم رحماً سأَبُلُّهَا بِبِلالِهَا (سأصِلُها) " [مسلم] .

ونزل هذا الكلام على قلوب الكفار نزول الصاعقة ، فقد أصبحت المواجهة واضحة بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إنه يطلب منهم أن يتركوا الأصنام التي يعبدوها ، وأن يتركوا الفواحش ، فلا يتعاملون بالربا ، ولا يزنون ، ولا يقتلون أولادهم ، ولا يظلمون أحداً ، لكنهم قابلوا تلك الدعوة بالرفض ، وبدءوا يسخرون من النبي صلى الله عليه وسلم ، ومن دعوته ، فصبر صلى الله عليه وسلم عليلهم وعلى تطاولهم .

وبدأ كفار قريش مرحلة جديدة من المفاوضات ، فذهبوا إلى أبي طالب عم النبي صلى الله عليه وسلم ، فقالوا له : يا أبا طالب ، إن لك سنّا وشرفاً ومنزلة فينا ، وإنا قد استنهيناك من ابن أخيك فلم تنهه عنا ، وإنا والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا ، وتسفيه أحلامنا ، وعيب آلهتنا ، حتى تكفه عنا ، أو ننازله وإياك في ذلك حتى يهلك أحد الفريقين .

وأرسل أبو طالب إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فلما جاء قال له : يا بن أخي ! إن قومك قد جاءوني ، وقالوا كذا وكذا فأبق عليَّ وعلى نفسك ، ولا تُحملني من الأمر ما لا أطيق أنا ولا أنت . فاكفف عن قومك ما يكرهون من قولك .

فقال النبي صلى الله عليه وسلم لعمه : " والله يا عم لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري ، ما تركت هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه " .

فقال أبو طالب : امض على أمرك وافعل ما أحببت ، فوالله ! لا أسلمك لشيء أبداً .

لم يستطع المشركون أن يوقفوا مسيرة الدعوة للإسلام ، ولم يستطيعوا إغراء الرسول صلى الله عليه وسلم بالمال أو بالجاه ، وقد خاب أملهم في عمه أبي طالب .

تعذيب المسلمين

أصبحت مكة سجناً كبيراً يعذب فيه ضعفاء المسلمين ، فهذا أمية بن خلف يُخرج عبده بلال بن رباح – رضي الله عنه – في حر الظهيرة ويطرحه على ظهره عرياناً فوق الرمال المحرقة ، ويضع على صدره صخرة كبيرة ، كل هذا العذاب لأن بلالا أسلم وسيده يريد منه أن يكفر بمحمد ويعبد الأصنام ، لكن بلالا كان قوي الإيمان صلب العقيدة ، لم يلن ولم يستسلم ، وكان يردد قائلا : أحد .. أحد .. وتحمل كل هذا العذاب حتى فَرَّجَ الله عنه .

وعُذِّبَ المسلمون داخل بيوتهم ؛ فهذا مصعب بن عمير قد حبسته أمه ، ومنعت عنه الطعام ، وجمعت أخواله حتى يعذبوه ليترك الإسلام ، وهكذا أصبحت مكة مكاناً غير مأمون على المسلمين ، فتعذيب الكفار لهم يزداد يوماً بعد يوم .

المقاطعة

ازداد عدد المسلمين ، وانضم إليهم عدد من أصحاب القوة والسيطرة ، فأصبح من الصعب على المشركين تعذيبهم ، ففكروا في تعذيب من نوع آخر ، يشمل كل المسلمين قويهم وضعيفهم ، بل يشمل كل من يحمي النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين حتى ولو لم يدخل في الإسلام . فقرر المشركون أن يقاطعوا بني هاشم ومن معهم ، فلا يزوجونهم ولا يتزوجون منهم ، ولا يبيعون لهم ولا يشترون منهم ، ولا يكلمونهم ، ولا يدخلون بيوتهم ، وأن يستمروا هكذا حتى يُسلِّموا إليهم محمداً صلى الله عليه وسلم ليقتلوه أو يتركوا دينهم ، وأقسم المشركون على هذا العهد ، وكتبوه في صحيفة وعلقوها داخل الكعبة .

وأحكم المشركون الحصار ، فاضطر الرسول صلى الله عليه وسلم ومن معه إلى الاحتباس في شعب بني هاشم ، وكان رجال قريش ينتظرون التجار القادمين إلى مكة ليشتروا منهم الطعام ويمنعوا المسلمين من شرائه ، فيظلوا على جوعهم ، فهذا أبو لهب يقول لتجار قريش عندما يرى مسلماً يشتري طعاماً لأولاده : يا معشر التجار ، غالوا على أصحاب محمد ؛ حتى لا يدركوا معكم شيئاً . فيزيدون عليهم في السلعة ، حتى يرجع المسلم إلى أطفاله ، وهم يتألمون من الجوع ، وليس في يديه شيء يطعمهم به ، ويذهب التجار إلى أبي لهب فيربحهم فيما اشتروا من الطعام واللباس ، حتى تعب المؤمنون ومن معهم من الجوع والعرى .

واستمر هذا الحصار على بني هاشم والمسلمين مدة ثلاث سنوات ، ولكن المسلمين أثبتوا أنهم أقوى من كل حيل المشركين ، فإيمانهم راسخ في قلوبهم لا يزحزحه جوع ولا عطش ، حتى وإن اضطروا إلى أكل أوراق الشجر ، فلم ييأسوا ، و لم ينفضُّوا من حول نبيهم صلى الله عليه وسلم .

وشعر بعض المشركين بسوء ما يفعلونه ، فقرروا إنهاء هذه المقاطعة الظالمة ، وأرسل الله تعالى الأرضة (دودة أو حشرة صغيرة تشبه النملة) فأكلت صحيفتهم ، و لم تُبْقِ إلا اسم الله تعالى .

وأوحى الله إلى نبيه بذلك ، فأخبر النبي صلى الله عليه وسلم عمه أبا طالب بما حدث للصحيفة ، فذهب أبو طالب إلى الكفار ، وأخبرهم بما أخبره محمد صلى الله عليه وسلم به ، فأسرعوا إلى الصحيفة ، فوجدوا ما قاله أبو طالب صدقاً .

وتقدم من المشركين هشام بن عمرو ، وزهير بن أبي أمية ، والمطعم بن عدي ، وأبو البختري بن هشام ، وزمعة بن الأسود ، فتبرءوا من هذه المعاهدة .

وبذلك انتهت المقاطعة بعد ثلاث سنوات من الصبر ، والثبات ، والتحمل .

عام الحزن

في العام العاشر من البعثة كانت الأحزان على موعد مع الرسول صلى الله عليه وسلم ، فقد مات عمه أبو طالب الذي كان يحميه من أهل مكة ، ثم ماتت زوجته الوفية الصادقة السيدة خديجة – رضي الله عنها – التي كانت تخفف عنه ، وتؤيده في دعوته إلى الله – عز وجل – فحزن الرسول صلى الله عليه وسلم حزناً شديداً على وفاة زوجته وعمه ، وازداد قلقه على الدعوة ، فقد فَقَدَ نصيرين كبيرين ، وصدق ما توقعه الرسول صلى الله عليه وسلم ، فقد اشتد تعذيب المشركين له ولأصحابه .

رحلة الرسول ﷺ إلى الطائف

لم ييأس الرسول صلى الله عليه وسلم بعد أن أعرض أهل مكة عن قبول الدعوة ، فسافر رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه خادمه زيد بن حارثة إلى الطائف ، وظل في الطائف عشرة أيام يدعو كبار القوم إلى الإسلام ، ولكن الطائف لم تكن أحسن حالا من مكة ، فقد رفض أهلها قبول دعوته ، و لم يكتفوا بذلك ، بل إنهم سلَّطوا عليه صبيانهم وسفهاءهم ، يسبونه صلى الله عليه وسلم ، ويقذفونه بالحجارة حتى جرح في رأسه ، وسال الدم من قدم الرسول صلى الله عليه وسلم .

وفي طريق عودة رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى مكة ، شاء الله أن يخفف عنه ما عاناه في الطائف ، فعندما وقف يصلي الفجر ، مر به نفر من الجن ، فاستمعوا له ، فلما فرغ من صلاته رجعوا إلى قومهم وقد آمنوا بالله وبرسوله صلى الله عليه وسلم ، قال تعالى مخبراً عن هذا : (**قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآناً عَجَباً ، يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَداً**) [الجن : ١ – ٢] .

الإسراء والمعراج

أراد الله – سبحانه – أن يخفف عن نبيه ، فأكرمه برحلة الإسراء والمعراج ؛ فبينما كان الرسول صلى الله عليه وسلم نائماً بعد العشاء جاءه جبريل ، فأيقظه ، وخرج به حتى انتهيا إلى دابة اسمها (البراق) تشبه البغل ، ولها جناحان ، فركب صلى الله عليه وسلم البراق حتى وصل بيت المقدس في فلسطين ، وصلى بالأنبياء ركعتين ، وهذه الرحلة من مكة إلى بيت المقدس تسمى (الإسراء) قال تعالى : (**سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ**) [الإسراء : ١] .

ثم بدأت الرحلة السماوية من المسجد الأقصى إلى السماوات العلا وتسمى (المعراج) ، ظل صلى الله عليه وسلم يصعد من سماء إلى سماء يرافقه جبريل ؛ حتى وصل إلى سدرة المنتهى ، وهو

موضع لم يبلغه نبي أو ملك قبله ولا بعده تكريماً له . وفي هذه الليلة ، فرض الله الصلوات الخمس على المسلمين ، ثم نزل صلى الله عليه وسلم إلى بيت المقدس ، وركب البراق عائداً إلى مكة . وفي الصباح ، حكى النبي صلى الله عليه وسلم لقومه ما حدث ، فكذبوه وسخروا من كلامه . وأراد الكفار أن يختبروا صدق الرسول صلى الله عليه وسلم ، فطلبوا منه أن يصف بيت المقدس – ولم يكن رآه من قبل – ؛ فأظهر الله له صورة بيت المقدس ، فأخذ يصفه وهو يراه ، وهم لا يرونه ، وأخبرهم صلى الله عليه وسلم بأشياء رآها في الطريق ، وبقوم مر عليهم ، وهم في طريقهم إلى مكة ، فخرج الناس ينتظرونهم ، فجاءوا في موعدهم الذي حدده النبي صلى الله عليه وسلم فشهدوا بصدقه . وأسرع بعضهم إلى أبي بكر يقول له : أسمعت ما يقول محمد ؟ وكان أبو بكر مؤمناً صادق الإيمان ، فصدَّق الرسول صلى الله عليه وسلم في كل ما قاله ، فسماه الرسول صلى الله عليه وسلم " الصديق " . وهكذا كانت هذه الرحلة تسرية عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وتخفيفاً للأحزان التي مر بها ، وتأكيداً من الله له على أنه قادر على نصرته ، وكانت أيضاً ابتلاء للذين آمنوا حتى يميز الله الطيب من الخبيث .

أشبال التوحيد

الحمد لله رب العالمين..والصلاة والسلام على إمام المربين ..المبعوث رحمة للعالمين ..سيدنا محمد .. وعلى اله وصحبه أجمعين .. أما بعد ..

فلم يعد يخفى على كل ذي بصيرة ما تبذله أنظمة الكفر العالمي وأذنابهم من جهود ضخمة في سبيل إفساد أجيال المسلمين المتعاقبة .. وما ذلك إلا لخوفهم من أن تتصل هذه الأجيال الناشئة بأسلافهم ممن ملكوا هذه الدنيا بأيديهم بعد أن أخرجوها من قلوبهم .. فطوعوا أنفسهم لنصرة دينهم .. فذلت لهم رقاب الجبابرة ..

وإيمانا منا نحن إخوانكم في منبر التوحيد والجهاد أن تنشئة هذه الأجيال على عقيدة الإسلام وأخلاقه ؛ على هذا النبع الصافي - توحيد وجهاد - إيمانا منا أن ذلك لا بد أن يكون من أولويات الدعاة المربين .. وان ذلك هو أشد على الكفار من رميهم بالنبل .. فقد شرعنا بنشر هذه الرسائل الموجهة لأشبال التوحيد .. والتي نسأل الله أن تكون عونا لكافة إخواننا واخواتنا في تنشئة ذلك الجيل الفريد ..

فإلى أشبـــــال التوحيد .. نهدي هذه الكلمات ..

والله من وراء القصد